الظلة الباسمة

بقلم : محمود البدوى

وقفت عصر يوم من أيام الصيف فى ميدان « التحرير » .. انتظر سيارة الساعة السادسة الذاهبة الى الاسكندرية .

وكان اليوم قائظا يتنفس بمثل النار الحامية والصعد على سيارات الطريق الصحراوى بلغ اشده والشركة قد أعدت للأمر عدته فسيرت سيارة فى كل نصف ساعة .

وما كنت احب الزحام .. ولا التدافع بالمناكب على شبابيك التذاكر .. ولكن لم يكن من السهل بد .. فوقفت فى الصف .

وعثرت بعد شق النفس على تذكرة

زوجية تحمل رقم ٢٤ في مقعد من المقاعد الخلفية لسيارة من سيارات السهم الذهبي .. وكان ما يشغلني أن أعرف الراكب الذي يجاورني في هذا السفر الطويل . والذي يحمل التذكرة رقم ٢٣ لأني أكره التدخين ولا أحب أن يجلس بجواري مدخن يظل يرمي الدخان في وجهي وحياشيمي ثلاث ساعات كاملة في هذا اللهيب .

ولم أكن في حالة نفسية تحملني أطيق رائحة الدخان .. إذ كنت على درجة شديدة من التوتر العصبي والهم النفسي جعلتني أتبرم بكل شيء فهربت من عملي ومن بيتي وأنا أحس بالاختناق .

وجاءت السيارة أخيرا تتهادى في الميدان الواسع واندفع اليها الركاب ..

وكنت آخر من صعد اليها .. وتحركت في ممشى العربة ببطء وأنا أتفرس في الوجوه حتى وجدت جارتي في المقعد .. وكانت سيدة شابة تضع في حجرها كتابا .. وفوقه مظلة يابانية مطوية .

ورمقتني بنظرة سريعة وأنا أجلس في هدوء بجوارها .

ولما تحركت السيارة أحسست أن أيام شقائي قد انتهت في هذه اللحظة وأني بدأت مرحلة جديدة من حياتي .

وأخذت أجيل الطرف في المقاعد التي أمامي وكان بالسيارة ٢٨ راكبا بعضهم من النساء والأطفال .

ورأيت من بين الركاب .. راكبا أعرفه جيدا ويدعى «عبد السميع» وكان يجلس في الكرسي الذي أمامي مباشرة .. وهو رجل سمين غليظ العنق نادر الكرش أصفر السحنة وكان قد جمع كل صفات الدمامة التي في بني البشر .. ووضعها في كرشه .

وكنت قد التقيت بهذا الرجل منذ سبعة أشهر وأنا أرافق صديقا وعروسه .. وكان قد راقتهما شقة في عمارة يمتلكها هذا المخلوق في حي الدقي ودفع له صديقي مائة جنيه هي كل ما أدخره في حسابه ليحجز له شقة وكانت العمارة لم تستكمل بناءها بعد .. وسلمه المبلغ طبعا من غير ايصال نزولا على ارادته .. وكلما طلب منه صديقي تحرير عقد الايجار .. يقول له :

ـ لسه لما نخلص العمارة يابني .

ولما اكتمل بناء العمارة .. قال له :

ـ آسف لقد استأجرتها الحكومة .

ولم يرد له المبلغ وانكر انه تسلمه .

وكان كاذبا اذ اجر الشقة لغيره بعد ان أخذ منه صعف هذا المبلغ .

واحسست بيدي تود ان تخنق هذا الرجل .

ولكن وجود جارتي الحسناء بجواري منعني من هذه الحركة .

وكان الرجال جميعا يدخنون .. اما النساء فكن يداعبن الاطفال .

وكانت جارتي الحسناء محولة وجهها الى النافذة .. ويدها اليسرى تحرك المظلة التي كانت معلقة دواما .. واشفقت عليها من هذه الحركة حتى كنت أود ان أتناول منها المظلة وأضعها على الرف .. ولكني خمنت بأنها مظلة صغيرة للزينة ليس الا وفي استنقائها في يدها مظهر من مظاهر الاناقة .

وبدا الحديث بيني وبينها طبيعيا وبسيطا وكان بسبب الستارة التي تحجب الشمس اذ كنا في اتجاهها الغارب .. وكانت مفصلات الستارة غير سوية فعالجتها لها حتى حجبت الشمس عنها .. وتركنا فرجة صغيرة بين الزجاج

تدفع اليها هواء باردا منعشـــا رطب وجهينا .

وبدأنا بالثناء على السرعة في السيارات المريحة في الطريق الصحراوي بعيدا عن التراب .

ثم بالحديث الخفيف عن وجهتنا وعرضنا من السفر .

وقلت لها بأني ذاهب للاســكندرية لتمضية اسبوع استريح فيه من عنـاء عملي الشاق ..

وحدثتني ان هذه هي أول رحلة لها في حياتها الى الاسكندرية .

وتلقيت هذا النبأ في عجب لأنها كما بدت فوق العشرين من عمرها عصرية ومن طراز متفتح وفي يسر ولا ترهقها نفقات السفر .

وزال العجب . لما عرفتني بأنها يتيمة الأب وانها تعول وتلازم امها المريضة .

وأخذ العشي يلفنا في شملته .

وفي خلال حديثنا ونظراتنـــا عبر الصحراء التي أخذت تدخل في الظلمة .. تنبهنا على حركة في السائق بدت غير طبيعية .. اذ انحرف الى يســار الطريق ثم توقف فجأة ..

وأصابنا الذعر اذ تصورنا خللا طرأ على المحرك .

وتقدم اليه أحد الركاب في المقاعد الامامية وأخذ يحادثه لحظات .. ثم نزل الاثنان معا الى المحرك .

وعرفنا ان السائق عندما بدأ يعالج النور لما خيم الظلام وجده معطلا تماما فآثر السلامة بالتوقف .. حتى تمر سيارة من سيارات الشركة فيبلغهـــا الامر .. والشركة ســـتعالج الموقف بارسال سيارة أخرى للركاب .

وأصابنا الكرب الذي يصيب كل من تتعطل به سيارة .

وفجأة لمحنا بطـــارية في يد الراكب الذي نزع مع السائق ويد تتحرك عـلى نورها الضعيف وتعالج الاسلاك .

وفي أقل من نصف ســاعة . أضاء نور السيارة وشق قلب الصحراء .

وكدنا من الفرحة ان نعانق الرجـل الذي أصلح الخلل .. وهو صاعد بهدوء اذ تحرك الركاب جميعا نحوه ليروه عن قرب .. ولما اقترب مني عرفته .. اذ كان « صلاح » من معارفي وانقطعت عني أخباره منذ عشرين سنة .

وكان مهندسا كهربائيا في حي شعبي ويقوم بالأعمال الكهربائيـــة في معظم العمارات التي تنشأ حديثا وكان شهيرا بشيء تخصص له ونبغ فيه .. اذ كان يقوم باعداد الزينات الكهربائيـــة في الافراح .

ويقوم بعمل شيطاني خارق اذ يوقف العداد الذي يسحب منه نور الفرح دون ان يلاحـظ ذلك أحد حتى دوح شركة ليبون بحيله وبراعته .

وكان يبتسم ويقول لي معللا فعلته :

ـ اني أفعل هـذا للفقراء والشركة غنية وحشمة تأخذ ولا تعطي الا القليل فمن العدل ان اقيم الميزان بالقسط !!

وكان مرحا ضاحك السن طلق المحيا أبدا وفي خلال عشرتي الطويلة لم أره مستاء من أي شيء أبدا .

ولم يكن يتقاضى من اصحاب الافراح عن هذا العمل الا أجرا زهيدا .

وكان بارعا في صنعته كمقاول للاعمال الكهربائية .

وكان أعزب وشغوفا بالنساء ولاأدري حاله الساعة بعد مرور هذه السنين .

وعرفني وأنا اقترب منه فاسرعت اليه وعانقته .

وقلت له :

ـ اهلا ٠٠ سالفاك في الاستراحة ٠ يا صلاح ٠

اذ لم يكن في العربة مجال للحديث وعدت الى مكاني بجوار الآنسة سعاد وسألتني :

ـ هو الذي اصلح النور ؟ ٠٠

ـ أجل ٠

ـ يفعل ما عجز عنه السائق انه بارع

ـ ابرع الناس طرا ٠٠ لم أجد له في حياتي ضريبا ٠

ـ صحيح في الظلام وعلى ضوء بطارية حقيقة يفعل هذا ٠٠ انه بارع حقا ٠

وأخذت احدثها عنه فضحكت لما علمت من أحواله وبعض سجاياه ٠

ولما بلغنا الاستراحة جلس معنا « صلاح » في الشرفة وأخذنا نأكل البطيخ ٠٠ وحدثني عن مشروع سيرل فيه واختاره لي ٠٠ فوعدته أن أزل فيه اكراما لصحبته واخذ يقص علينا نوادره واحواله حتى انثلج قلوبنا ٠

ولاحظت انه لم يتغير فيه شيء قط ٠٠ فما ظهرت عليه أقل عوارض الشيخوخة مع انه يقترب من الستين ٠٠ ولا قلل من مرحه ونوادره ٠

وقضينا معه ربع ساعة هنية ٠٠ وكانت سعاد مسرورة بلقائه لمرحه الرائد وعذوبة حديثه ٠

وتحركت السيارة واخذت تنهب الأرض الى الاسكندرية ٠٠ وشعرت ان الالفة قد زادت بيني وبين سعاد الى الحد الذي اشعرني بالخوف ٠٠ اذ ان السرعة مستقلل من زمن سعادتي وتمنيت ان تسير السيارة أبطأ وأبطأ حتى تبلغ الاسكندرية في الصباح وكنت أخشى أكثر من كل شيء أن نفترق ٠٠ في محطة الرمل ٠٠ ولا أراها بعد ذلك أبدا ٠٠ وكنت أود أن تغب بنا السيارة حينا في هذا الطريق السوي ٠٠ حتى نصل في منتصف الليل ٠

وقبل ان نبلغ العامرية رأيت منطقة التعمير الجديدة وزراعة البطيخ والخضر على الجانبين وشاهدت بيوتا جديدة أقيمت للفلاحين والعاملين في المنطقة ٠٠ وشعرت بفرحة ٠٠ وتملكني احساس من الزهو لم استطع دفعه ولا اخفاءه عن جارتي ٠

وكان لها مثل شعوري ٠٠ فالارض الموات قد أحييت في مدى سنين قلائل واهتزت تربتها وجرى عليها الماء الذي جعل كل شيء حيا ٠

ولقد كانت السيارة فيما مضى ٠٠ تسير في تيه قفر من الصحراء الموحشة فأصبحنا اليوم نمشي بين صفين من الخضرة ٠٠ وأوراق الزرع الناضرة تمايلها الريح ٠

وغمر ركاب السيارة جميعا موجة من النشاط لما بصروا بالفلاحين من حولهم يعملون ٠٠ والأرض نبتت فيها الحياة ٠

وسألتني سعاد :

ـ هل سافرت في هذا الطريق من قبل ٠٠ ورأيت هذا التحول ؟ ٠٠

ـ الواقع ٠٠ انني لم أسافر فيه ٠٠ منذ سنين ٠٠ ولم أر هذه الخضرة الجميلة الا الآن ٠

انظري كيف يصنع الانسان ٠٠ اذا اراد ٠٠ تغلب على الطبيعة ٠٠ وقلب الصحراء الى جنة ٠

ـ صحيح انها جنة ٠

ـ كم انا مشوق ٠٠ الى تمضية نهار بطوله هنا ٠٠ وسط هؤلاء الناس ٠٠ وما أجمل ليل الصحراء ٠٠ اذا جمع بين الخضرة الناضرة والجمال الفاتن ٠

ـ ان اعصاب سكان المدن ٠٠ في حاجة الى مثل هذا الهدوء ٠

وكان هذا ما اتوق اليه وأود ان احققه لنفسي .. كنت في حاجة شديدة الى بضعة شهور كامل في الصحراء حيث لارعيق ولا صجيج .. ولا اصوات البوق .. ولا هزة القطارات ولا التدافع بالمناكب في ركوب السيارات والنزول منها ولا الانتظار بالساعات على المحطات .. ولا التناحر والتنافس للحصول على شيء .

كنت في حاجة لان اعيش فترة طويلة عيشة صوفية لاسترد روحي .. التي احسست بانها ذهبت .

ونظرت الى جارتي وكانت قد اغلقت عينيها نصف اغماضة .. عندما مالت السيارة الى اليمين متحدة طريق البحيرات الى المدينة .

كانت اغفاءة حالمة .. وكان وجهها جميل التقاطيع ناصع البياض .. وعلى خدها الايمن شامة صغيرة .. وعلى شفتها العليا دملة احقتها بمنديلها وهي نائمة لما احست بنظري يميل اليها .

وكانت قد عقصت شعرها بايشارب ازرق حشية أن تعكشه الريح .. وبدا شعرها جميلا لامعا شديد السواد .

وكان حاجباها مقوسين غريرين .. ولكنها رجحتهما .. وعملت في اهدابها الطويلة « بالرميل » حتى القى الحاجبان ظلا صغيرا على الخد الناعس .

وكنت بكليتي منجذبا اليها وشاعرا بقوة شديدة تشدني الى جوارها .. ولكن فارق السن الكبير بيني وبينها حملني اخفي مشاعري عنها وأتراجع نرسخا اذا ماتقدمت خطوة .

ولقد التقيت في حياتي نساء في سن جمالها وفي مثل شبابها ولكن عيني لم تقعا على مثل هذه الرقة قط كان حديثها همسا .. وخجلها هو خجل العذراء التي لم تريها المدينة .. ابدا .

وعلمت منها بعد حديث طويل .. وبعد ان تفتحت نفسانا واحس كل منا بالالفة لرفيقه .. أنها ذاهبة الى الاسكندرية لزيارة خالتها التي تسكن في حي محرم بك .. وانها تخشر الا ينتظرها احد عند محطة الرمل .. فلا تهتدي الى البيت .. لانها تجهل أحياء الاسكندرية تماما .. وهونت عليها الامر .. وقلت لها وقلبي مفعم بالسرور .. انني على استعداد لمرافقتها حتى عتبة البيت .. وانني اعرف الاسكندرية جيدا لانني عشت فيها سنوات طويلة .. واطمانت تماما وسكن روعها وقلقها .

ولما اقتربنا من حدود المدينة لاحت الانوار تتلالأ .. وبدت حركة بين الركاب تدل على انهم اقتربوا من نهاية رحلتهم اذ تحركوا في كراسيهم .. واخذ بعضهم يتطلع من النوافذ .

ودخلت السيارة المدينة .. واقتربنا من حي الشاطبي .. وهناك مالت السيارة الى اليسار واخذت طريقها حول الكورنيش .. وبدا البحر يزمجر ويدفع موجه الشديد الى الشاطيء .. والرذاذ يرش .. وسرت الانسة سعاد .. بمنظره وشاقها جدا حتى أخذت تتطلع في استغراق .. واخذتها هزة من السرور .. فاقتربت مني دون وعي منها حتى ضغط كتفها على كتفي .

كانت تشوانه وفي حالة من الضعف هزت حسنها واوتار قلبها فعبرت عنها وهي لاتدري بتلك الحركة .

وقد أدركت من اقترابها مني انها تلوذ بي وتلمسني بكتفها لادرك معنى سعادتها .

ودارت السيارة في محطة الرمل .

وتوقفت في المحطة النهائية .. واحد الركاب ينزلون وسلمت على صباحي ، صلاح ، ووعدته بان ألحق به في المنصورة .

وكان مع الآنسة سعاد حقيبة واحدة متوسطة الحجم .. وكان معي مثلها ولكنها اصغر من حقيبتها .. واشارت ان تركب ترام الرمل لتوفر المصاريف .. ولكني اركبتها تاكسي لتتعرف لحظات قليلة قبل ان تفترق .

وانطلقنا متمهلين في شوارع الاسكندرية .. وكان التاكسي متهالكا وبطيئا فسرني ذلك لتطول مدة وجودنا معا .. واحسست في صوت العربة الشاحب وانا اشعر بها تجاوزني في هذا المكان الصغير .. انني احببتها من كل قلبي .. وحبا عميقا هزني في ساعات قليلة .. وكنت أشعر بالخجل الشديد لعارق السن الكبير بيني وبينها .

وكانت هي تحس نحوي بعاطفة من الايناس والالفة .. وان لم ترق الى مرتبة الحب .. ولكنها كانت اقرب الى الركون الى انسان تستريح له وبخبيك وانت وحيد في مدينة كبيرة وبهذا الشعور اقتربت مني وزاد التصاقها بي .

وكلما اقتربنا من الحي الذي تسكن فيه حالتها كلما ازداد شعوري بفراقها وشعرت بآلامي . فقلت لها وقلبي كله لوعة

ـ الا أراك مرة أخرى .. ؟

ـ اين ؟ .. أنا لا اعرف الاسكندرية

فكرت سريعا في مكان هادىء ثم قلت على الفور

ـ في كاريو رشدي .

ـ رشدي .. ؟ لا أعرفه .

ـ اركبي السيارة العمومية .. من طريق البحر واطلبي من السائق ان ينزلك في محطة رشدي .. المسألة سهلة .

ـ سأحاول .

ـ هل يمكن ان نتلاقى غدا ؟ ..

ـ كما تحب ؟

ـ سأنتظرك في الصباح الساعة الحادية عشرة .

ـ هل أستطيع ان آخذ حمامات هناك ؟

ـ انه شاطىء جميل .. طبعا يمكنك .. ، بس ، البس المايوه .. واتي خارجة .

ـ انا مشوقة الى البحر جدا جدا .

واحمر وجهها .

ـ سنتمضى صباحا ممتعا .. تعالى ضروري .

ـ حاضر واقف .

وقرعت باب بيت حالتها .

وسلمت ودخلت .

وانتظرتها في كاريو رشدي قبل الميعاد بساعة .. وجاءت رشيقة باسمة .. وكانت قد غيرت ثوب الأمس واتخذت جوربة رمادية وبلوزة بيضاء .. وهي جيدها عقدمي تقليد الزمرد زادها فتنة .

وكان الكاريو غير مزدحم في هذه الساعة فجلسنا على طاولة صغيرة بجانب البحر .. وأخذ المستحمون يغدون على الشاطىء ويقيمون الشمامي على صف واحد .

وكان البحر ثائرا والراية السوداء مرفوعة .. ومع ذلك نزل بعض الاطفال الى الماء واخذوا يطرطشون على الشاطىء .. ويخوضون الى صدورهم في الماء .. وامهاتهم يرقبنهم في يقظة .

وظهر لعيني ان اللواتي لم يحلمن ملابسهن بعد أحسن من اللواتي لبسن المايوه .. وأشد اثارة .

وبدت الفتنة منطلقة من رقص ديول

[illegible] الماء
٠٠ فبدت السيقان الجميلة في لون المرمر ونعومتـــه ٠٠ وطرف من باطن الفخذ رما يعلو الركبة ٠٠

وكان الانفعال والحركة نفسها في الماء تزيد من جمال الصورة وعلى الأخص اذا قاوم الطفل دفع الأم أو تعلق بصدرها٠

وتعلقت عيناي مع عيني سعاد ٠٠ بشاب وفتاة متقـــاربين في السن ٠٠ يحاولان النزول ثم يترددان لثورة الماء ٠٠ واخيرا تنزل الفتاة ويتبعها الشاب ٠٠ وعلى صفارة المظاس يعـودان وقد انهكهما التعب ٠٠ وتفتحت حياشيمهما مع انهما لم يسبحا الا بضعة امتـــار قليلة ٠

وقالت سعاد لما رأت ثورة البحر

ـ تصـــور انني كنت أود أن السبح اليوم ٠٠ لاستحم ٠

ـ غدا سيهدأ البحر ٠

ـ آمل ذلك والا ستضيع مني الفرصة ٠٠ لاني مسافرة يوم الثلاثاء ٠

ـ اذا لم يهدأ البحر غدا ٠٠ سنذهب الى بلاج المحمى وتستحمين هنـاك ٠٠ فهو هادىء في معظم الاحيان ٠

ـ على أي حال لابد ان استحم غدا ٠٠ لاني مشوقة الى البحر ٠٠ مشوقة جدا

وكانت تتكلم بحماسة٠٠ وهي تقرب وجهها وعينيها مني ٠٠ فرأيت السواد الجميل يلتمع في العينين العسليتين ٠٠ والشعة وقد علاها الرضاب ٠

وكان البحر يهدر من حولنا حتى بدا عالي الموج٠٠ والمصيفون أخذوا يتوافدون ويجلسون على الطاولات التي بحـوارنا ولكننا لم نشعر بوجودهم اصلا ٠٠ كنت مأخوذا بسحر جمالها ٠٠ وسحر حديثها ٠٠ وكنت افكر في الاقدار التي وضعت هذه الفتاة بجانبي في السيارة ٠٠ واما في حالة حزن ٠٠ لتمسح عـــلى جراح قلبي ٠٠ وتضيء الحياة امام عيني ٠٠ كان كل ما يحيط بي وهي بقربي جميلا ٠٠ تعبرت بطرتي لـــكل شيء ٠٠ فالشمس متفتحة ساطعة والبحر أزرق والسـماء أشد زرقة ٠٠ والبواخر تتهادى هناك في عرض الماء وزوارق الصـــيادين قد طرت اشرعتها ٠٠ والفت شباكها ٠

وسألتني وهي تراقب البواخر ٠

ـ هل ركبت البحر ٠٠ ؟

ـ اكثر من مرة ٠

ـ السفر في البحر ممتع ٠٠ ؟

ـ انه من أجمـل الاسـفار طرا ٠٠ ينتابك احســـاس آخر وانت في قلب البحر تحسس والسماء فوقك ولا أرض هناك ٠٠ ولا حيوان ٠٠ ولا نبات ٠٠ باحساس جديد ٠٠ تحسين بالحرية التي تفتقدها على الأرض ٠٠ تحسين ان الدنيا اصبحت لك في لحظات خالدة ـ احساس المسافر الى القمر ٠

ـ احل ٠٠ ولكن دون خوف ٠

واخذنا في حديث ممتع حتى اقتربت الساعة من الواحدة بعد الظهر ٠٠ فنهضنا واخـــذنا نتمشى على الـــكورنيش ٠٠ وعرضت عليها بأن نتغدى معا وحبـــذ سمك جميعة فاعتذرت بأن خالتها أعدت لها الغداء ٠ واتفقنا على أن نتعشى معا ٠

وركبنا الاتوبيس ورافقتها الى قرب بيت خالتها ٠

وفي الليل انتظرتها في « اثينوس » ٠٠ وجلسنا نجالس فرقة الموسيقى ٠٠ ولـــكن لما بدأ الرقص في « البست » رأينا وجوها ليس فيهـــا جمال ترقص دون فن ٠٠ فتحولنا عن الراقصين ٠٠ ثم خرجنا الى مقهى باستوريدس عـــلى البحر ٠٠ فقضينا جلسة شعرية حالمة

في الضوء الخافت الذي يحرك المشاعر الهاجعة .

ثم تمشينا الى « الاحلون » وتعشينا هناك نخبا مقددا ومسكروبة وشربنا القهوة .

وبعد العشاء مشينا والبحر يهدر .. وكانت الانوار ساطعة في « اللسان » .. وفي حي « راس التين » .

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة والليل ساكنا . والبحر في اجمل مناظره .. كان يلفه ضباب اسود أشاع السحر المبهم المجهول في الافق الضبابي .

كنا نسير الهوينا نستمتع الى وقع اقدامنا في الليل الحالم .. وكانت قد تركت يدها في يدي فشعرت بها يدية حارة .. وكنت انظر الى عينيها الدعجاوين الحالمتين وسوالف شعرها يداعبها ريح البحر وهي تدفعها بيدها الرخصة واقرأ السرور والخدل الحالم في الخد المشوق المتفجر .. والعينين الناعستين .. واسر واشعر بانقباضة تسري في لحمي واليأس قلبي .. ثم تحدثني في نفس اللحظة احد شيئا في نفسي يهجس بي « ويذكرني بفارق النفس الكبير بيني وبينها .. واحس بضباب يغشى وشيء يقبض على قلبي .. كانت لا تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها .. وكان عمري ضعف عمرها .. وكان هذا الفارق .. يجعلني أتردد ولا اندفع .. ولكني كنت احس بصدق عواطفها .. فلم تكن متكلفة ولا كاذبة في اندفاعها نحوي .

وقد احسست باللحظة الجميلة .. وكنت لا اود ان اشوهها باي خاطر متشائم .

ولما تركتها قرب باب حالتها .. كان نصف الليل يقترب .. ورجعت وحدي وانا احس بلوعة الفراق .. مسح اني سأقابلها في الصباح .

واستجاب البحر لطلبنا في اليوم التالي فكان هادئا .. ليسا .. وكانت ترتدي المايوه تحت ملابسها فنزلنا الى الشاطيء .. وخلعنا بكرسيين من الكاريتو .. وخلعت ملابسها بالقرب من شمسية كانت خالية .. وانطلقت تجري الى البحر وهي تتسوانه وفي عجرة من السعادة الدافقة .

ورأيت جسمها أمامي عاريا .. في تعاطيع جسم فينوس وفي مثل جماله .. وشعرت بهزة شديدة .

واحسست بلسعة حارقة وانا أرى جسمها المشوق الثائر الفائر بالصبا امامي عاريا في ضوء الشمس ..

وكان من مستلزمات الحمام البحري .. ان تجلس ساعة بالمايوه على الشاطيء قبل ان تنزل الى الماء حتى لا تصيبهما الرعشة والبرد .

وجلست بجواري مسترخية وهي في كل هدأتها .. وكانت تأتي بحركات عصبية بريئة وبدلا من ان تخمد نارى كانت تزيدها لهيبا .

وكنت أحس انفعالي وازدياد ضربات قلبي واحمرار وجهي .. بالتحول عنها والتخطيط في الرمال .

ورأيت أن افتح حديثا عن مشكلة اقتصادية حادة وأرى رأيها فيها كمجرد الكلام العابر .. ولكن هذه الحيلة لم تنفع وظهر التكلف والكظم على محياي فتخلصنا من ذلك بالحديث عن موديل المايوهات منذ سنة ١٩٢٥ .

ولما عدت الى البحر تعمدت انها تجيد السباحة وكنت أود ان اغطس ورامها

وأسفت لكوني لم اعد نفسي لحمام البحر .

وخرجت والماء يقطر كحبات البلور من فوق جسم كالمرمر ودهبت الى الدش ثم عادت .. متدثرة بالفوطة واخذت تمسح على سيقانها وفخذيها .. ورايت قدميها الصغيرين باصابعها الدقيقة لاول مرة وهي تمدها عارية امامي ثانية الركبة .

واستطيع أن ارسم هذا الخيال كما رايته بكل تفاصيله الدقيقة بعد ساعة وبعد عشرين سنة دون ان اخفي منه شيئا .. فقد استقرت الصورة بكل تفاصيلها الدقيقة كاملة في ذهني ..

وودعتها بعد ان تغديتا .. ومضينا العصر كله معا .. وكانت راجعة الى القاهرة في سيارة الساعة السادسة مساء .

واخترت لها آخر سيارة لتقضي اكبر وقت معا .. واحسست وانا اسير وحدي في محطة الرمل بان سكينا حادة قد انغرست في قلبي .. فقد شعرت ان شيئا عزيزا قد اختطف مني فجاة دون تمهيد لذلك .. وخشيت الا أراها مرة أخرى .. مرت كالطيف دون ان اخطي منها حتى بقبلة او ضمة .

ولقد كتمت كل عواطف قلبي ومزقت مشاعري وحواسي لمجرد حماقة السن .

وأدركت الآن ان هذا كله حماقة ولقد اسفت عليه بحدع الاسف ولكن ماذا يجدي الأسف .

واحسست بالضياع وانا اسير وحدي .. على الكورنيش .. وكانت الشمس قد اصفرت واخذت أشعتها الغارية تذهب صفحة الماء وتحيلها الى لون العسجد .. وكان المنظر جميلا ولكن عيني كانا يغشيهما الحزن بلون اسود صارب .. فلم ار ماحولي من جمال .

وانسحبت الى مقهى صغير معتم في داخل البلد في شارع « النبي دانيال » وطلبت فنجالا من القهوة .. ثم فنجالا آخر بعد نصف الساعة وبعدان احسست بالصداع يضرب في صدغي بمطارق من حديد .

وفي الليل انسحبت الى البستيون ولكن لم يؤنسني النوم وكانت الساعة وقد تجاوزت العاشرة .. ورايت صلاح المهندس الكهربائي يضحك مع صاحبة البنسيون وكانت .. امراة نصف ولكنها لاتزال عندورة .. ومن نظرات عينيه الى فهمت انه نال منها كل مايشتهيه .. وكان على حاله من المرح ولكنها لم تؤثر في ودخلت غرفتي مستاءا .. ثم بعد قليل وجدت نفسي اخرج الى الطريق بنفس الملابس .

ووجدت حانة على طريق الكورنيش في حي « الاراريطة » فاتخذت مكاني في الداخل الى طاولة ترى البحر .. وطلبت كاسا من البراندي وكنت قد انقطعت عن شرب الخمر منذ خمس سنوات .. ولكني في هذه اللحظة لم استطع المقاومة .. وتناولت ثلاثة كؤوس في فترة وجيزة .. وبطري يسبح وفكري شارد وكان البحر امامي يهدر .. وفي داخل المشرب جلس نفر من المصيفين يتعشون ويشربون في سكون .. ورايت في الركن شابا نحيلا يشرب وحيدا وقد احمرت عيناه من فعل الخمر .. وكان صامتا حزينا وسترته ممزقة عند الكوع وحالته تدعو الى الاشفاق والرثاء .

كانت حالته حال سكير ضائع .. وخشيت ان تماديت في الشراب أن أصل الى مثل حاله .. فكففت عن الشراب وغادرت الحانة .

وفي هذه اللحظة لمحت سيدة حسناء عابرة في الاناقة تعبر طريق الكورنيش ومشت في الدرب الصغير المعتم الذي على ناصية الحانة . ودخلت في شارع جانبي فسرت وراءها والخمر تدفعني الى ملاحقتها في طرق عجيب حتى دخلت بيتا من اربعة طوابق .. وعاينت عيني .. ووقفت حائرا .. واخذت أتراجع خطوات في الشارع الساكن .. وانا اقرأ أرقام المنازل حتى لمحت لافتة تشير الى غرفه مفروشة ثم سيدة تهم باغلاق نافذة ارضية فاخذت أنظر اليها بقوة كأني التمس منها العون على احراجي من كآبتي .

وسألتها في عجلة :

ـ الغرفة المفروشة ... هنا .. ؟

ـ أجل ...

ـ هل أستطيع ان اراها ...

ـ الآن ... بالليل .. !!!

ـ تعبت من البحث طول النهار حتى جفيت قدماي ... أرجوك ...

ـ طيب تفضل .

وهبطت بسرعة من باب العمارة ... وفتحت لي بابها .

ودخلت وراءها واغلقت الباب بعجلة وسرعة .. ولاحظت السكون المخيم في الداخل ... والنور الخافت .. وأحسست عيناي تتطلعان الى ماحولي .. واجلستني .. برشاقة في الصالون وتركتني .

وجلست وحيدا وانا أشعر بهزة الخوف من فرط السكون المخيم لولا ان السيدة كانت في جمال نادر ودماثة واخذت تبدد الخوف وتشيع الطمأنينة في قلبي .

ودخلت بابتسامة على الشفة وزجاجة كوكاكولا في اليد .

فقلت وانا اتناول منها الزجاجة .. واضعها جانبا :

ـ شكرا ولكن اذا كان لابد من التحية .. فانا افضل القهوة .. لاني اشعر بصداع شديد ..

ـ هل شربت ؟

ـ كثيرا .. حتى سكرت !

ـ لماذا .. ؟

ـ لاني فقدت شيئا عزيزا !

ـ ضاعت محفظتك ؟

ـ المحفظة لاتزال في جيبي .

ـ لماذا تحسرين وليس اذن ... ؟ بالنقود تستطيع ان تفعل وتشتري كل شيء حتى السرور .

ـ ليس الى هذا الحد .

ـ بل واكثر من ذلك .

وكنت اتطلع الى صورة مقلوبة في صدر الصالون .

ـ لمن هذه الصورة ؟

ـ انه المرحوم زوجي .

ـ زوجك ولماذا جعلت وجهه الى الحائط ؟

ـ حتى لا يرى عرضه المثلوم ... !

وفتحت فمي دهشا .

واستطردت بحرارة :

ـ لقد قلبت الصورة منذ ست سنوات عندما جاءني أعز صديق لزوجي

وفي الشهر الذي مات فيه روحي يراودني عن نفسي بمكر ودلال .. ولم اكن اتصور الدلال يبلغ هذا الحد بالرجال .

فمصمصت على وجهه وصفعته .

ودمعت عيناها .. واستطردت :

ـ ولكن الفقر ادلى .. لم اجد انسانا ذا مروءة .. يحفظ الشرف والكرامة لأرملة مسكينة .. تكاد تموت جوعا .. ولاحقتني الديون والمطالبات كانما تفتحت ابواب جهنم مرة واحدة لتحرقني نارها .. وجاء البدل مرة أخرى وعلى شفتيه ابتسامة المنتصر الذي يريد ان ينتقم ودفع الديون وقلب صورة صديقه المرحوم بيده .. جعل وجهها الى الحائط وابتاعني .

ـ وهل كل الرجال الذال مثل هذا ؟

ـ ليس كلهم طبعا .. فهناك الطيبون امثالك .. !

وكان في صوتها رنة التهكم .

ـ تعال اريك الغرفة .

ومشيت وراءها في الداخل .. وفتحت بابا .

ـ هل اعجبتك ؟

ـ انها جميلة جدا .

ـ وهل تريد ان تسكن حقا .. ام ان .. تقضي ليلة .. ؟

ـ اريدها شهرا بطوله .

ـ سيكلفك ذلك كثيرا .

ـ كم .. ؟

ـ تسعون جنيها .. ثلاثة جنيهات في الليلة .

وابتسمت واخرجت محفظتي .

ـ اتريدين شيئا مقدما .. الآن .

ـ لا .. ليس الآن .. ادفع في الصباح .. انت عمي ؟

وضاقت برقة

ـ هل تريد أن تأكل شيئا او تشرب قليلا من الخمر .

ـ لا بأس مادمت ساقضي الليل معك .

وابتسامت بخجل .

وسمعت بابا داخليا يفتح .. وصوت رجل في صوت كالهمس .. ثم خيم السكون من جديد ..

وعادت تحمل زجاجة من الخمر ... وبعض السمك المشوي .

ـ مع من كنت تتحدثين .. ؟

ـ مع البواب .. كنت اطلب منه شيئا من السوق .

ـ وهل يعرف ان عندك ضيفا .. ؟

ـ طبعا لا .. اطمئن .

وكانت فاتنة في ثوبها الأسود .. ولا تتجاوز الثلاثين من عمرها .. ورأيت على وجهها بعض الهموم .. والسهوم .. وهي تنظر الى الكأس .. ثم عادت الى صفائها .. ولطمها ولم استطع مقاومة الفتنة فاختطفتها .. فتململت مني برقة وهي تقول بنعم عذب

ـ الا تستطيع أن تضبط عواطفك ؟

ـ ابدا انني متيم .. الى حد الجنون .

ـ تمثل هذه السرعة .. ؟

ـ وهل للحب مقياس وأرمنة ؟

ـ ابدا .. عندك حق .

ـ وانزلق ثوبها وهي تطفيء النور .

وسألتني بعذوبة :

ـ ما اسمك .. ؟

ـ خليل .

ـ وانا اسمي فورية ..

ـ اسم جميل .

وسبحت معها في الظلام وكنت احس بانفاسها ورائحة عطرها .. وكانت قد

تعطرت ومشطت شعرها .. وتركت قميصها الاسود يبرق على فخذيها وكتفها الايسر .. واحسست وانا ارطب شفتي المحترقتين برضاب ثغرها بانها تكتم الما مبهما يسحق روحها .. ولكن كانت تروح في دوامة الحس المخدر .. لتنسى حدثا جللا .

كما احسست وانا احتضنها بقوة .. بأني اتعذب وان البؤس والعذاب والقلق يمزق روحي .

واحسست بنشوة الصبا وانا ارى روحها الخالية المعذبة .. تمثل عذابي وتستجيب لي وتمتزج بي .

وفي الضوء الخفيف الازرق سبحت .. واحسست بالنعاس يداعب اجفاني .

ولما استيقظت احسست بثقل غريب وفي عيني وفي رأسي .. ولم احدثها بحواري ..

ولما خرجت من الغرفة وجدتها في الحمام .

وكانت الشقة في عتمة رهيبة .

وصوت البحر يهدر في حنون .

ولمحت على الضوء الباهت شيئا معلقا في غرفة جانبية .. فارتعش قلبي .. لمحت مظلة يابانية كالتي كانت في يد سعاد .

تقدمت بقوة .. ودخلت الغرفة وفي رأسي الحزن .. نفس اليد .. لنفس المظلة .. وامسكت المظلة .. كانت من نفس الصنف .. ولكن القماش يختلف لونه .. فسررت .. وفيما انا اضعها في مكانها وجدت بابا يفضي الى غرفة داخلية فدفعته فلان تحت يدي .

وعلى الضوء الخافت وجدت رجلا مطروحا على الارض وكان هناك دم يخرج من أنفه وفمه .. ولما اقتربت منه عرفته انه عبد السميع الضي الشبح صاحب العمارة الذي كان مضايقي السيارة والذي اغتر مال صديقي وغيره من الخائنين الذين يرغبون في السكن في املاكه ولعله جاء يقضي معها ليلة فحققه وسلبته كل ماعنده . وكان يرتدي نفس بدلته التي رايته بها في السيارة .. ونسيت ماقعله بصاحبي وخرجت على مضرعه وارتعش قلبي من الرعب .. وانتابني الفزع واغلقت الباب بسرعة .

وارتديت ملابسي وانا ارتعش .. وانسحبت متلصصا .. الى الشارع .. وانا في حالة رعب شديد .

وكان الليل يصفر .. والريح تتولول .. ولكني رحت احرى واحرى في ظلام الليل دون وعي .. حتى ارتطمت بشيء .. ووقعت على الارض فاقد الوعي .

واخذت استفيق ببطء وكان اثر المخدر لايزال في رأسي .. فثقلت جفوني وفتحت عيني بصعوبة .. كان الصباح لايزال يغشيهما .. ورحت كل ماحولي أبيض الحجرة .. والفراش وحتى الكراسي .

ووجدت سيدة تجلس بجواري وكانت شابة جميلة تمسك بمظلة يابانية في يدها .. ولكنها لم تكن مظلوية هذه المرة .. كانت قد فتحتها فوق رأسي لتقيني من الشمس .. أو من شيء آخر .. وكانت تنظر الى جنان وانا اتنفس بصعوبة واسبح عرقا .

وكنت افتح عيني بقوة لاعرف أي المرأتين هي .. اسعاد أم فوزية .. فقد كنت على حالة من الضعف .

لم استطع منها ان ادرك الحقيقة .

ولكن على أي حال كانت السيدة تحرك المظلة بلطف كأنها تروح بها على قلبي .